قراءة في قصيدة [آلام الثورة وآمال الاستقلال] للشاعر الشعبي ' بزيز بادر' [بمناسبة خمسينية الاستقلال]

تاريخ الإرسال : 2012/08/07 - تاريخ القبول للنشر : 2012/11/19 تاريخ النشر : 2012/12/24

إبراهيم إبراهيمي
ماجستير (تخصص : علوم اللسان
فرع : تعليمية اللغة العربية)

آلام الثورة وآمال الاستقلال[1]

يا شباب اليوم من حقك تسأل ... وابحث عا لتاريخ في وطنك بذات
اتفكر من كان قبلك يتبهدل ... أباكم وأجدادكم ماذا قاسات
اكتب صفحات للماضي سجّل ... مجد الوطن اصعيب لاتنس هيهات
الحضارة عزها راه ايهمّل ... والتطور بالعلوم والفلسات
أتمسك بشرف وطنك واتمهل ... والطبيعة درس ليكم يا قرات
أنا عشت قريب في العصر الأول ... نحكيلك كيفاش كانت ذا الحياة
لجزائر واش كانت اتمثل ... نعطيلك لمحة عليها وقت انفات
حُكم الاستعمار فيها واش اعمل ... من وقت اللي احتلها حتى لنّمات
كان الشعب احزين عايش تحت الذل ... في وطنو محروم من كل الخيرات
دارولو قيّاد لفكارو تقتل ... اوقهروه الحكّام والبشقوات
الأرض الزّينة يملكوها بالمنزل ... مجرمين ايوزعوا فيها قطعات
مول الأرض اللّي أصبح بها يعمل ... في لعمال الشّاقة تحت الطّغاة
وتكذبني روح شوف بلاد التل ... تلقى فيها كام باقي أثارات
أفوارم واصوار بالحيط مسلسل ... سلك مشوك حوطوا بيه الجردات
ذريّة لويس كانت تدلّل ... مبسوطة بالخير تاكل في الثّمرات
ولد الأصل إيجي حذا الشبّاك ايطل ... يتأمّل بأغصان هاذوك الشجرات
في كوخ القصدير ساكن يتململ ... حاير في وقت الشّتا لوين إيبات
ذا الحكم الغدّار شوفو ويّن وصل ... أولاد الأحرار داروهم رُعاة
طمّعوا في ثرواتنا ليهم تكمل ... راهم ظنوا يملّكونا للنّمات
واحنا مانرضاش بيهم نتحمل ... والزّعاما خطّوا ليهم خُطات
غيم الثورة جا علينا لجبال مظلّل ... ريحو بارد فيه كاذا من نسمات
خيّم باسحابو عل الأوطان الكل ... راهم حسّو بيه في كلّ الجيهات
والمجاهدين وسّطو تتنقل ... واذا خرجوا فالعدو يدّوه اشتّات
الثورة لهيبها بالنار اشعل ... واشتد القتال سبع سنوات

1 للشاعر الشعبي «بزيز بادر» من منطقة الشارف /الجلفة.

في ذا الفترة حَسْ لسْـــــتعمار افْشل ... حاول فيهم كـــــــام مِن محُـاولات
اِيعزّز فـــي قوتو فـيها يجـــمـل ... قاللهم نقـضي على هذا الســـادات
جاب الطائرات في الـجو اتْقـــنبل ... والـجيوش امْســـــلحة بالدبابات
والهزيمة دايْـــمة بيهم تـــنـــزل ... من جيش التحرير ذوقهـــم لسـعات
كانـــوا فيه اجْنود يعطوهم مـثل ... وِين اشْتد الحرب وسْط المَعـــركات
يا حُزني لبْـــطال ماكـانت تعمـل ... أوماذا ، ماذا كان فيهم من خصـــلات؟
مَنهم مَن مات عالـــــوطن أمـبل ... أومنهم مَن مازال فِ قيْد الحـــياة
حتـــى راد اللّه بفْـعالو يْفـــعل ... قُوة ربي قاهـرة كـــلَ القـوات
سبحان اللّه كل شيء لـــهُو أجَـل ... نادى صوت الحق بالحرية جـــات
راه اذْنى الأجـــل الراحل يـــرحـل ... خَـل وطْن العـزّ لـــهْل العـــزّات
بان لإستـــقلال والشـــعب اتْهول ... بالفـــرْحة واسْرور بالاحتـــفالات
وابْدينا اِنجـازكـاذا من مـــعْمل ... واتْـكون عـــلْمناصب والآلات
والثقافة العـامّة فيـــنا تشْـمل ... أولاد الفلاحـــين صبْحوا إطـارات
والناس الشْرفة اللّي كـــانت رُحّل ... راهم صبْحوا يســـكنوا في العِمارات
نحمد ربـــي ليه راني نتْـوســـّل ... عاد الوطن اليـوم لهْلو بالـــذات
بَينْ يا شباب مجْـــهودك وابْـذل ... واسمْع قول النّـــظم لْهَاذا الأبـــيات
اتْحقق ماكـان فكـــرك يتأمّـل ... نعمة ربي نحمـدوها كـــيما جات
حماية هذا الْوطن بِيكم تكـــمْل ... واللّي سلْفو ورْثوكـم أمـــنيات
ركّـز في رسالتك لا تَستعْـــجل ... ذا التّسرع ألْفتوا ليـه النّظْـــرات
رَاهم خَوّانـــة أوراكـــم تتْختّـل ... طمّاعين ايمَزْقـو فالْوطـــن أشْتات
شَدْ الماضـي ورْبطوا بالْمُســـتقْبل ... والدُنيا راها اسْـوايـــع بالدَّرْجـــات
واعْتصِم باللّه عنْـو تتْـــوكّـل ... هو قادر يرْفعك لَعْلى الدَّرْجـــات
نخـــتم قوْلي بالصْـــلاة عْلَى الرُسل ... محـــمد عليـــه ألـــف صـلوات

ليس من شك أن الشاعر جعل من الكلمة فضاء ، يحمل اختلاجات كثيرة ، فيحمل باللفظة ذاته ويحمّلها مسؤولية الترجمة عما يجول بنفسه وهواجسه الدفينة ، فأصبحت الكلمة الشاعرة عالما آخر في عالم الدلالات ، تنقل الحياة إلى الشعر ، وتنقل الشعر إلى الحياة ، لما يكون في البناء الشعري من فنية ، وإبداعية ، وائتلافية بين الكلمات ، والجمل . فيحملك إلى إعمال الفكر في كينونته ، وعوالم دلالاته ، فيأخذ منك القلب لجمال صوّره وتصويرا ته ، ويرهف منك الحس لجرسه وإيقاعه ، فتجتمع في البناء الشعري كلية ، تكون مدعاة بحق لقراءات تستحق المدارسة والتحليل .

ولقد اعتمدنا لتحليل هذه البنائية الشعرية منهجا فنيا (وهو منهج يعنى بالبناء العام للعمل الأدبي ويهتم باللغة ، و الصّورة الأدبية ، والموسيقى ، وغير ذلك مما له علاقة من قريب أو بعيد بجمال العمل الأدبي)[1]

إن اهتمام الشاعر الشعبي بالواقع الثوري والسياسي ، جعل منه لسان حال صادقا يؤرخ لواقعه ويبين كثيرا من التفاصيل والجزئيات التي يكون قد تناساها التاريخ أو نسيها ، فصدق الشاعر وبساطة إدراكاته جعلته يتسم بالعفوية في إطلاقاته الشعرية إلى درجة السذاجة التي لا تقرأ من خلالها إلا الصدق ، الذي ليس له من هم إلا نقل التجربة الشعورية كما هي دون حسابات جانبية فالشاعر الشعبي أو الشعر الشعبي كان لهما الفضل الكبير في قراءة واقع المجتمعات وتاريخ الشعوب والثورات بل وحتى في التأريخ لها.

1 ـعمار يزيد ,النقد الأدبي الجزائري , المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر , 1990ص:135

وما القطعة التي بين أيدينا للدراسة والتحليل إلا واحدة من القطع الكثيرة التي طرقت هموم الشعراء على أوطانهم ، والشاعر « بزيز بادر» من أولئك الذين وأنت تتجول في بستان أشعاره تتشمّم روحه الوطنية العالية وحبه المتدفق الفياض لبلده ، ونظرته المتفهمة للمحيط والحياة .

ولد الشاعر « بزيز بادر» في الثامن عشر من شهر مارس سنة ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين بالشارف ، وهي إحدى دوائر ولاية الجلفة وتبعد عنها بخمسين كيلومترا . ينتسب إلى عرش العبازيز، و ينتمي إلى أسرة عريقة تتصف بالكرم والجود والشجاعة . كانت بداية تعليمه كما جرت عليه عادة أهل المنطقة في الكتاتيب القرآنية ، حفظ ما تيسر من القرآن ـ جزء (يس) ـ وأبجديات الكتابة والقراءة . ثم التحق بالمدرسة الابتدائية وتحصل فيها على مستوى السنة السادسة ابتدائي 1962. ولظروفه الخاصة انقطع عن الحياة الدراسية .

كان مولعا بالشعر فنشأت بينهما علاقة صداقة بدأت بحب استماعه إليه في جلسات بوادي المنطقة فتربّت فيه ملكة القرض والنـَظم ، كان أيضا مولعا بالترحال فارتحل إلى مناطق عديدة من الوطن وتعرف إلى عادات وطبائع وأعراف كثير من المجتمعات . وعلى الرغم من مستواه العلمي النظامي البسيط إلى أنه كان محبا للعلم شغوفا إلى طلبه والنهم منه . فتشرب من الواقع وتجاربه معارف كثيرة وحقائق متنوعة فكان يعمل فكره في كل شيء . و يجيل بخاطره ووجدانه في سنن الكون ؛ مما أوهبه تصورا سليما لمجريات الأمور وسنن الحياة ، ولعل الصداقات طريق آخر من طرق التعلم والاحتكاك . فربط صداقات كثيرة مع شعراء عرفوا بعطاءاتهم المتميزة في المناطق المجاورة نذكر منهم : الشاعر بلخيري محفوظ ، المقدم المختار ، مالكي قويدر، عبد السلام أحمد ، قدوري بن صالح ، هزيل هزيل من ولاية الجلفة الخثير بن السايح (الأغواط) إبراهيمي لحسن (تيارت) عمر زيعر(تيارت) ، بن النوي عبد القادر (بوسعادة) . أما حياته العملية فلم تكن متميزة عن عادات أهل منطقته ، وتراوحت بين حرفة البناء والزراعة ، وتربية الماشية ، والتجارة ، وجعل من الصيد أهم هواياته ، فكان يرتحل لأجله ويقطع الأمصار ، مما أذكى فيه قيما حياتية كثيرة . قام الشاعر « بزيز بادر» بعدة نشاطات في عدد من المهرجانات مع الكثير من الأساتذة الشعراء من هؤلاء: بالخيري محفوظ ، بختي يحي ، والخثير بن السايح ، وسعدون أحمد وإبراهيمي لـحسن . و شارك مع الأستاذ إبراهيم شعيب[1] في الملتقى الوطني للشعر الشعبي « الباصور» كما شارك في عدة مهرجانات وتظاهرات فنية جهوية ووطنية أخرى منها.

1ـ أول مهرجان في الجزائر العاصمة بعد الاستقلال احتفاء بعيد النصر تحت إشراف الأستاذ التومي مصطفى 1962.
2ـ مهرجان محمد بالخيري الخامس للأدب الشعبي بالبيض 1989
3ـ مهرجان الأغنية البدوية المقام بالجزائر 1991
4ـ الملتقى الوطني الأول للشعر الشعبي حول الثورة التحريرية 1995
5ـ فعاليات الملتقى الوطني الأول للشعر الشعبي " الباصور" الأغواط 2006
6ـ البطولة الوطنية للرماية بالجلفة وحصوله على مرتبة شاعر الدورة 2001
7ـ المسابقة الوطنية الثانية للشعر الشعبي (الوئام الوطني) وحصوله على صفة العضوية

1 ـ أستاذ بمعهد اللغة و الأدب العربي بجامعة الأغواط وباحث في الأدب الشعبي .

حاسي بحبح .
تنوعت مواضيع أشعار ـ بزيز بادر ـ ، وذلك جراء تعدد مظاهر الحياة الطبيعية والاجتماعية (لأن الشعر ينفعل بانفعال الإنسان ببيئة الطبيعية والاجتماعية التي يتحرك في بوتقتها، متأثرا بكل ما يطبع هذه البيئة من سمات ومميزات)[1]، وتأثيرها من خلال صور الارتباط اليومي بمحيطه مما أفرز عنه نتاجا شعريا زاخرا تعددت فيه الأغراض فنقل الشاعر بزيز بادر الحياة إلى الشعر وجعل من الشعر حياة لما فيه من لمسات فنية عبر بها الشاعر عما يخالجه من مشاعر بعثت فيه نشوة الإبداع في صور فنية شعرية ثرية بالدلالات غنية بالرموز والإيحاءات. «لأن الشعر ينفعل بانفعال الإنسان بالبيئة الطبيعية من حوله والبيئة الاجتماعية التي يتحرك في بوتقتها ، متأثرا بكل ما يطبع هذه البيئة من سمات ومميزات»[2] ، وتأثيرها من خلال صور الارتباط اليومي بمحيطه مما أفرز عنه نتاجا شعريا زاخرا تعددت فيه الأغراض فنقل الشاعر بزيز بادر الحياة إلى الشعر وجعل من الشعر حياة لما فيه من لمسات فنية عبر بها الشاعر عما يخالجه من مشاعر بعثت فيه نشوة الإبداع في صور فنية شعرية ثرية بالدلالات غنية بالرموز والإيحاءات .
ولقد بدت أهمية الموضوع في القصيدة الشعبية في تحديد مجالها وتشكيل مضمونها وفق ما يتطلبه الموضوع ، وهذا ما جاء في قول محمود أمين العالم : « أن الموضوع في العمل الأدبي هو عنصرة أشخاصه ، أحداثه ، وواقعه ، ومعانيه ، التفصيلية»[3].
فلقد وجد الشاعر « بزيز بادر» في الشعر مناخا صالحا للتعبير عن عواطفه ووجدانه بلغة سهلة وأسلوب بسيط لا يتطلب معرفة الكتابة واتقان قواعد اللغة المعربة التي تستدعي قدرا كافيا من التعليم والدراسة ومن هنا استطاع أن يقلد أغراض الشعر العربي مدحا ، وفخرا ووصفا وغزلا ، وهجاء ... الخ ، مع اختلاف في الرؤية وتباين في الأسلوب ، والتصوير، (من هنا نلاحظ وجود شعراء شعبيين بلغوا القمة في أغراض الغزل ، والهجاء ، والرثاء أمثال عبد الله بن كريو، والشيخ السماتي، ومحمد بن قيطون)[4] وهي صورة تنطلي على الشعراء سواء الشعبيين أو الرسميين إذا صح القول ، وصدق التجربة الشعورية مدعاة للإبداع والتميز ، وهذا ما جسده « بزيز بادر» فنظمه الشعر لم يكن لمصلحة مادية أو معنوية وإنما عدها موهبة ، وعطاء من الله فلا تكون ، إلا لخدمة الخير .
الشاعر « بزيز بادر» فاجأنا في بنائيته الشعرية بفقهه العميق للحدث السياسي العام ، وإدراكه الواضح لشروط النهضة ، انطلاقا من فكرة وعي التاريخ ، والبحث في أغواره .
ابتدأ الشاعر قصيدته بأسلوب النداء لشد الإنتباه ، انتباه العقل للفكر والقلب للشعور والإحساس والنداء لا يستعمل في هكذا حالات إلا لضرورة الخطب وأهمية الغاية ، وهو استيقاف للتأمل يستدعي ما بعده من كلام.

يا شباب اليوم من حقك تسأل وابحث عا لتاريخ في وطنك بذات وكأنه أراد أن يقول لشباب اليوم : اسألوا عن التاريخ ....وأي تاريخ....تاريخ الوطن تحديدا.

اتفكر من كان قبلك يتبهدل أباكم وأجدادكم ماذا قاسات

1 ـ عمار يزيد : النقد الأدبي الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1990 ص135 .
2 ـ ميشال عاصي، الشعر و البيئة في الأندلس، بيروت المكتب التجاري ، 1970، ص: 126.
3 ـ أحمد قنشوبة: الشعر الشعبي في منطقة الجلفة(ـ1940 ـ1990) دراسة فنية تحليلية، لنيل شهادة الماجستير، 1997، 1989، ص 186.
« نقلا عن محمود أمين العالم حول نظريه الأدب وعلاقتهما بالثورة الاجتماعية « .
4 ـ التلي بن الشيخ : منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1990 ، ص 30.

وهي فكرة ملفتة من الشاعر كونه يؤكد حقيقة حضارية ، فالأمم التي تعي تاريخها وتستلهم منه العبر والعظات ، ليس لها من حظ الحضارة إلا كما لها من حظ إدراكها لتاريخها ، وليست معرفة التاريخ غرضا لذاته إذا لم تكن معمولة بإعمال الفكر ، وفعل الأمر اتفكّر ، كلمة فيها كثير من الإيحاء للتأمل من شاعر لم يتمرّس على دراسات أكاديمية ورسمية . فيدعو الشباب بل يأمرهم من خلالها لتذكر الماضي والتفكر في حال الآباء والأجداد ، وماذا أصابهم من ويلات المستعمر وما كان عليهم من جفوة منه ، وغبن ، وقسوة ، ومآسات ألقت بظلمِها القاتمة على شعب حر وعزيز .

اكْـتب صَفحات للماضي سجّل مجْد الوطن اصْعيب لاتنسى هيْهات

ويدعو الشاعر شباب الأمة لتدوين التاريخ وتسجيله لأنه مدعاة للفخر والاعتزاز والمجد، وتثبيته في ذاكرة التاريخ والناس.

الحضارة عزْها راه ايْهَـمّل والتّطور بالعلوم والفلسفَـات

أتْمسّك بْشَرف وطْنك و اتمهّل والطبيعة درْس ليكم يا قْـرات

فالحضارة وزخمها وتطورها ورقي العلوم فيها والفلسفات ـ هنا كناية عن التطور الفكري ـ يقول الشاعر راه ايهمل وكلمة ايهمّل أي يؤدي بك إلى إهمال التاريخ وطمس فترة أصيلة من فترات الشرف والتمسك بذلك علامة نضج حضاري ، أن تتأملوا الطبيعة وتعملوا فيهل الفكر لأن فيها كم من درس ، وكم من علامة ، وكم من دلالة ، يا قرات ؛ أي يا طلاب العلم ، وهذا كلام يتسم بالفعل عن سلامة الحس العلمي ومستلزماته المنطقية ، فتأمل معي لهذا الاسترسال اللفظي الذي عقب النّداء ، وتأمل فيه كلماته المنيرة { أبحث ..أتفكر ..أكتب ...أتمسك } دعوة إلى البحث وتقسي الحقائق كلها يليها أمر بالتفكر والتأمل في هذه الحقائق التي تستوجب الكتابة والتدوين ، حفاظا على التاريخ لأنه مجد وشرف يختمها الشاعر في المشهد الأول في قصيدته بواجب التمسك بهذا القبس الوضّاء من تاريخ أمتنا الماجد ، هذا الربط المنطقي للأفكار إذا كان له من دلالة ، أو إشارة فلا ينمّ إلا على الثقافة المستنيرة والفكر الوضاء للشاعر الشعبي بالمنطقة

الشاعر استعمل في هذا المدخل أسلوبا إنشائيا رآه مناسبا لضرورة التقديم كونه يقدم نصيحة ويؤسس لمشهد جديد و لذلك وظف النداء ، والأمر....

وفي مشهد جديد ، وفي لحظة منفعلة ، وبعد هذه التهيئة الفكرية والنفسية ، يتلبّس الشاعر دور المؤرخ الذي يستدعيه الواجب الأخلاقي أن يحكي التاريخ وما يحمله من مرارات للأجيال الناشئة ويبتدئ ممهّدا بقوله :

أنا عشت قريب في العصر الأول نحكيلك كيفاش كانت ذا الحياة

الجزائر واش كانت تْتـــمَثل نعْطيلك لمحة عليها وقت انْفـات

حكم الاستعمار فيها واش اعـمل من وقت للي احتلها حتى لمات

يضعنا الشاعر في الإطار الزماني كونه لم يعايش المرحلة الاستعمارية كلها وإنما عايش منها جزءا ، ويقصد هنا بالعصر الأول أي الفترة الاستعمارية ، إذ يسمّيها عصرا نظرا للتحول الحاصل من فترة استعمارية قاتمة و استقلال مضئ ، والتمايز الكبير بين تلك وتلك ، وقد لا تُقدّر العصور بالأزمان وإنما بمسيرة الأمم وحياتها ويواصل الشاعر سرده شادا إليه انتباه الشباب نحكيلك كيفاش كانت ذا الحياة ، وكلمة نحكيلك استقاها من واقعه الاجتماعي إذ كانت الحكاية الشعبية تعتبر رافدا من روافد التعليم والتاريخ والثقافة ، الجزائر واش كانت اتمثل؟ وهو استفهام لا يراد منه الاستفهام بقدر ما

يراد به الفخر والاعتزاز بالماضي التليد لهذه الأمة نعطيلك لمحة عليها وقت انفات ، وظف الشاعر عبارة لمحة كدلالة ذكية منه على جرائم الاستعمار ؛ لأنه مهما أسهب في ذكر التاريخ فلن يكون ذكره إلا ومضة قصيرة من مآسات شعب ، وما كان أشد و أنكى، أراد أن يقول الشاعر . حكم الاستعمار فيها واش اعمل ، و نستقرىء في هذا البيت درجة الأسى والحزن ، والانقباض النفسي الحاصل للشاعر، بذكره هذا الماضي المرير ، وهو ما نستشفّه من الإيقاع الحزين في كلمة واش اعمل ، وبعد هذا التمهيد والإعداد ، والشدّ على الأذهان للإدراك ، والأنفس للانتباه والتأثر ، وهو بذاته عمل يعد عملا منهجيا وفعلا ذكيا تستلزمه العلمية والمنطقية حتى تحدث القبول بين الباث والمتلقي وتؤدي الوظيفة التعليمية المرادة ، وكأني به في هذا المقام إماما خطيبا قام للخطبة الثانية بعد فترة استراحة استجمل فيها أفكاره وقواه ، بعدما أعدّ الأذهان والقلوب للإنصات والاستماع ليربط التاريخ بالثورة ، والثورة بالتاريخ ، بل رأى أن الثورة هي التاريخ هي سجل مقدس كتبه الآباء بدمائهم ليبقى عبرة وذكرى للأبناء والثورة ليست عملا بسيطا إنها تضحيات جسيمة ، محن ، وجراح ، ودموع حروفها دماء الشهداء وصفحاتها أشلاء المعذبين وكتابها سجل المجد الذي بحفظ و يخلد شرف الشعوب ، وهام شاعرنا يستلهم من اللغة ألفاظها ليبني التاريخ شعرا ويصنع منه صورة ، صورت الواقع أيام الاحتلال .

كان الشعب احْزين عايش تحت الذّل في وطْنو محروم من كل الخَيْرات

مشهد حزين، صورة عليها كثير من القتامة ، و الظلل . ابتدأ بها الشاعر هذا المشهد الجـــديد ووظف كلمات ممدودة (احزين ، عايش ، محروم) ، إنه إيقاع حزين يتناغم ومقتضى الحال ثم يسهب الشاعر قائلا :

دارولو قياد لفْكارو تقـــتل اوقهروه الحكام و البشـــقوات

وفي هذا البيت استوقفنا الشاعر إلى حدث مهم زمن الاستعمار حيث حاول القضاء على الشخصية الوطنية ، وقيمه الأصيلة وأعرافه وعاداته ، فقوله لفكا رو تقتل ، فقتل الأفكار يترتب عليها قتل الضمير الوطني والديني ، وهي سياسة سخر لها المستعمر كثيرا من الوسائل وبالأخص توظيف القياد الحكام والبشقوات وهي تسميات درج عليها الناس أيام الإستعار الأولى وهم أناس عملاء وظفهم الاستعمار لخيانة الوطن والدين ، هذه الحقيقة التاريخية تؤكد اهتمام الشعر الشعبي بالعمل الثوري في هذه المنطقة ، على غرار باقي أرجاء الوطن ويسترسل الشاعر في سرد حيثيات الثورة ، ويتحدث عن المُعمّرين وما فعلوه بأراضي الجزائر هم وشيوخ الكولون وهي كناية عن كبار المستعمرين ، وحالة الرفاه التي كانوا يعيشونها .

الأرض الزّيْنة يملكوها بالمَـنْزل مُجرمين اِيوَزْعوا فيها قطْعـات

إذ اقتطعت الأراضي الجزائرية من أهلها الأحرار وأخذت عنوة منهم ، والأرض عند الجزائري من الأملاك التي ما دونها إلا الموت ، فهو إذلال ما بعده إذلال للشعب ولفظة مجرمين تدل على الأثر النفسي البالغ على الشاعر ، الذي يعكس الحقد الدفين تجاه مثل هذه التصرفات وما ذكرها في الجملة إلا دليل لغوي على ذلك ، وهذا الانفعال الحاصل في هذا البيت يستدعي مجموعة من اللواحق اللفظية الدالة على ذلك .

مُول الأرض اللي أصْبح بها يَعْـمل في لعْمال الشّاقة تحت الطُـغاة

ويستطرد الشاعر نبش التاريخ ليثيره ، فينقل لنا صفحة الاستبداد و التسلط حتى أضحى الأحرار في أرضهم عبيدا وخدما ، ليس لهم من حظ الحياة إلا شقاءها تحت إمرة الطغاة ، وأولئك الظالمون الذين داسوا على حرمة الجزائريين ، فأخذوا منهم أغلى ما لهم كرامتهم

بعدما أخذوا منهم حريتهم وحياتهم وهو مشهد بل صورة نقلها بصدق كما تؤكده الرواية التاريخية لأساليب لاستعمار الفرنسي في الجزائر. وللتأكيد على ذلك، أسهم، و أسهب في ذكر كثير من الدلائل إذ يقول:

وتكذبني رُوح شوف بْلاد التّل تلقى فيها كام باقي آثـارات
أفْوارم واصْوار بالحيْط مْسلسل سَلك مْشوّك حوْطوا بيه الجرْدات
ذْرية لويـــس كانت تدلّل مبسوطة بالخير تاكُل في الثمرات
ولْد الأصل إيجي حْذا الشبّاك ايطُل يتْأمّل بأغْصان هاذوك الشجرات
في كوخ القصدير ساكن بتململ حايـر في وقْت الشْتا لوين إبات

نعم، هي مناطق تشهد بقايا آثارها على سياسات الاستعمار في أرض الأحرار (أفوارم.. أصوار...سلك مشوك) ذكرها شاعر شعبي في منطقة الجلفة وانتقل بذلك من الإقليمية الضيقة (كما شاع على الشعر الشعبي الثوري)[1] إلى الآفاق البعيدة ليتجاوز محيطه وواقعه وهذا نوع من التجديد في شعر «بزيز بادر» أو هو استثناء تميز به ....إلى أن يقول ذريت لويس .. وهي كناية وظفها الشاعر قاصدا بها أبناء الفرنسيين وهي سخرية حزينة وهي كلمة إن كان لها من إيحاء فلا توحي إلا بحياة الرغد والعيش الهنيء، الذي نعم به أبناء الاستعمار وتبسطهم بالخـيرات وأكل الثمرات. وينتقل بسلاسة ليجلي لنا حالة الجزائريين أيام كان أبناء لويس ينعمون بخيراتنا.

صورة تحاكي واقعا مريرا عايشه وعاشه (أبناء الأصل) كما أراد الشاعر أن يقول: ولد الأ صل . وظف الشاعر جملة أحذا الشباك أيطل أي السجن، حتى تكون عبارة السجن لصيقة بمرارة الحياة جعل الشاعر نافذة السجن مطلة على الجنان والبساتين حتى تزداد حرقة الجزائري والتي وظفها في كلمة يتأمل و لا يقصد بها التأمل الفكري بقدر ما يقصد التحصر والأسى على الحال وهو توظيف ذكي وتشبيه بليغ، إذ لم ينحصر المعنى على السجين ذاته بل انسحب إلى حالة الجزائر السجينة في خيراتها وياله من تشبيه أبدع في تصوير الحقيقة . فهنا تتلون اللغة بحسب الحال ومقتضاه خادمة للحس ومطاوعة له، فيحدث في التأليف حس ينقل المادة إلى شعور والصورة إلى تصور، « فأصبحت الأشياء المركبة الموصوفة ضروبا من المعاني، وكان أجودها لذلك ما استجمع أكثر المعاني التي يتركب منها الشئ الموصوف وأظهر مافيه أولاها بتمثيل حقيقته «[2].

إلى أن يقول:

ذا الحكم الغدّار شوفو وين وْصَل أوْلاد الأحرار داروهم رُعـــاة
طمْعوا في ثروَاتنا لِيهم تَكمـــل راهم ظنوا يملكونا للْمَمـــات

وتوظيف صيغة المبالغة لكلمة (غدّار) يعكس طبيعة الغدر في المستعمر والتي انطلت على ممارسة أحكامه على أبناء الجزائر الأحرار حتى أضحوا رعاة عندهم.

وكلمة(الراعي) تدل في معناها عن العبيد والخدم وهو انزياح لفظي استخدمه الشاعر للتعبير عن المكانة التي آل إليها الجزائري.

واستوت لهم الحال، وازينّت لهم الجزائر، ونعمت عليهم بخيراتها. هكذا قال الشاعر في الشطر الأخير من هذا البيت، حتى ظن المستعمر بأن الجزائر هيهات...هي للممات لهم ولكن.

1 ـ التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب الرغاية، 1990، ص: 33.

2 ـ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ أدب العرب ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974، ص: 106.

الشاعر هنا يضعنا في إحالة تاريخية بعد وصف عام لحالة الجزائريين، وهو مشهد جديد من مشاهد التاريخ، مشاهد البطولة، والتضحيات، مشاهد الرجولة، والشجاعة ، والأنفة ، إنه البذل، بذل الدماء، والأجسام، إنه البذل بالكل، إنها الثورة.... ثورة المجد والخلود، ثورة الحرية ، هكذا يحكيها الشاعر:

غيْم الثورة جا عْلى لجبال مْظل ريحو بارد فيه كاذا مَن نسْمات

إذ شبه الثورة بسحاب كثيف ظللَ الجبال ، وهي استعارة مكنيه جاءت في قالب صورة فنية ابتدأ بها الشاعر الحدث الجلل ، سحاب و غيم اشتد برد ريحه فيه كذا من نسمات ، وليس المراد هنا أنواع النسمات بقدر ما يصوّر الشاعر لشدة البرد ، ودليله السياق الكلامي.

استلهم الشاعر الصورة الفنية من واقعه ومقتضى حال مجتمعه مراعيا بيئته ومحيطه ، وهو استعمال لغوي ذكي و ظفه للتقبل والتأثير، وكذا تمهيد وإعداد للآتي..وهذا ينمّ على سمة الخيال عند الشاعر.

خَيّم بسْحابو عْلى الأوْطان الكل راهم حسّوا بيه في كل الجهات

هذه الثورة ، والتي غيّمت بسحابها على كل أرجاء الوطن فذاع سيتها وحسيسها في كامل الأوطان والتي أرادها للتعبير عن كل الأماكن والأمصار في الوطن ، وهي دلالة للتاريخ على انتشار الثورة في أرجاء الوطن ، واتساع رقعتها ، وإنه لحدث أشم .

والمجاهدين وسْطو تَتـــنقل واذا خرْجوا فالعدو يدّوه اشْتـات

وانتقل الشاعر من الوصف بالخيال والصورة ، إلى الوصف بالحال، كون الأمر أضحى جدا يستدعي الجدية . والمجاهدين كلمة توحي بشيئين اثنين أولاهما : البعد الديني للثورة الجزائرية ، وثانيها الإيمان الجازم إما بالشهادة أو النصر ، وهو تحدّ داخلي تحفزّ عنه تحدّ خارجي من جأش، وبأس ، وعناد ، وصبر ، وبطولة نادرة ، لما تلهمهم فيهم كلمة الجهاد . أليس الجهاد إيمان ، إيمان بقضية ، وإيمان بمصير؟ ، أليس الإيمان بعد الصبر نصر؟

فظهر ذلك في انتصاراتهم المتكررة العدو يدوه اشتات وهو تشبيه يعكس ضراوة القتال وتتالي مشاهد النصر.

الثّورة لهيبها بالنار اشْـعل واشتد القِتال سبْـع ســـنوات

وتزداد .....حتى أضحت الثورة لهيبا مشتعلا على المستعمرين ، ووظف الشاعر الصورة الفنية والمتمثلة في التشبيه الاستعاري ، إذ شبّه الثورة بالنار المشتعلة ، وهي صورة قربت المعنى وأذكته في نفوس المتلقين لما فيه من إيقاع وإيجاز وإعمال خيال .

بدا الشاعر منفعلا من خلال الإسهاب المطرد ، والإيقاع المتواصل لهذه الأبيات ، وهو عمل لغوي يتناغم والحال . ويعود لوصف آخر ، إنه وصف حالة المستعمر وهو نوع من الالتفات الموضوعي ويُعدّ عملا بليغا هاما . إذ يُصوّر حالة الفشل والهزيمة النكراء التي لقيها من سواعد الأبطال ، رغم المحاولات، والمحاولات .

في ذا الفترة حسْ لسْتعمار افْشل حاول فيها كام مِن محْـاولات

اِيعَزّز في قُوتو فيها يجْمـــل قاللْهم نقضي عْلى هذا الســادات

جاب الطائرات في الجو اتْقنــبل والـجُيوش امْسـلحة بالدبـابات

نعم ، إنه التاريخ على ألسنة الشعراء الشعبيين كما رأوه رؤيا العين ، أو كما سمعوه من ألسنة المجاهدين ، إنها العفوية الصادقة واليقين الذي لا لبس فيه ، رغم افتراءات العدو وتمويهه للناس والعالم بقضائه على الثورة ، والفلاقة، كما كان دائما يقول . إلا أن الواقع الميداني هو ما كان على ألسنة هؤلاء . إنه الفشل الذريع ، والضآلة ، والتهاوي لهذا المستعمر ، رغم كل التعزيزات العسكرية ، من عتاد جوي متطوّر ، وبريّ مدويّ ، إنها

الهالة والآلة التي لقيت سدودا موانعا وإرادات فذة وإيمانا بالقضية صابرا وبالنصر ، كان جيل التحدّي و التصدّي ، فكان حدث الهزيمة لهذا المحتل هكذا يقول الشاعر بزيز بادر :

والهزيمة دايمة بيهم تـــنْزل مَن جيْش التّحرير ذوْقهم لسْـعات

إنه الانتصار المتتالي الذي صوّره الشاعر في أذهاننا بالاستعارة المكنية لقوة الردع التي كان يمارسها المجاهدون ضد المحتل في قوله : ذوّقهم لسعات إذ هنا شبه ما يلقاه المحتل منهم بالسمّ اللاسع ، ويعكس من القراءة ماهو دال على خفة الضربات وسرعتها، وإصابتها للهدف ، وهو نوع من الحركة العسكرية التي كان المجاهدون يعكفون عليها توخيا وتجنبا للصدامات الطويلة التي قد تؤرق كواهلهم . هكذا استطاع الشاعر أن يوجز في الوصف ويبلغ ، وأبقى للمتلقي تفاصيل يتحسسها و يستجلي حقائقها من خلال قراءته لهذه الصورة الفنية التي تكون فريدة في المشهد ؛ الذي هو مشهد وصفي ثوريّ تاريخيّ لا يستدعي كثيرا من الخيال لجدية الموقف ، ونجد الإيقاع متسارعا عكس تفاعل الشاعر مع الحدث فكانت لغته منسابة وكأني بها سيل ماء متدفق ، فأضحى المشهد كله معركة حامية الوطيس ، وهو عمل يستجلب إليه المتلقين للتفاعل مع الموقف إحساسا وشعورا، فتحدث الدلالة الكلية .

الشاعر«بزيز بادر»يوظف الالتفات وهو من الأساليب البلاغية إذ يستعمل أفعال المضارعة، ثم يلتفت إلى الماضية فهو نقل للأذهان يستدعيه الموقف وهو محاولة من الشاعر كأني بها كرّ وفرّ دعته ضرورة الحرب،ايعزز.. يجمل..نقضي..جاب..اتقنبل..تنزل..ذوقهم..

فالهزيمة دايمة بهم تنزل أضحى المتلقي وسط الحدث ، قرّبه الشاعر بفعل المضارعة تنزل وكأن الهزيمة حاصلة الآن ، وهذا التقريب الزماني يعكس فيك الفعل وكأنه حقيقة ماثلة ثم يبتعد الشاعر عن حدث الهزيمة ، أي هزيمة المستعمر باستعمال الفعل الماضي ذوقهم ليعمم الحدث ويبقيه للماضي والتاريخ .....

وأضحت الجزائر موطن الثورات ، وأرض الثوار ، فنحن لا نرهب عدُونا ، أو هكذا أراد الشاعر أن يقول ، ولا نرضى بالذل ، ولو ملك عدونا كل وسائل الدمار والإبادة ، ونحن فخورين بأن نردد أن جيش التحرير هو جيش المعارك والحروب الطاحنة ، وقد يكون هذا الإحساس ضربا من الفخر يفرضه الحماس الفياض ، زمن الحرب . ولكنها مع هذا صورة لا تخلو من تصوير الواقع أيام ثورة التحرير، ونلمس فيه وجدانا لا يخلو من واقعية في تجسيد ما يحدث في المعارك ، وربما كان من جماليات هذا النص أن الشاعر «بزيز بادر» لم يوظف أسلوب الشكوى والتظلم و استجداء الحقوق على مذهب العبيد للسادة ، وحل محله تعبير جديد ينبع من الشعور بمركز القوة ، وفرض الواقع على العدو ، وهي ظاهرة واضحة في الشعر الشعبي الذي واكب الثورة المسلحة .

من الثورة ..... من دوي المعارك ... إلى الذين صنعوا المفخرة ، والتاريخ ، إنهم الثوار الأبطال

كانوا فِيه اجْنود يَعْطوهم مَـثل وين اشْتد الحرب وسْط المَعْركـات

يا حُزني لبْطال ماكانت تعمل أوماذا ، ماذا كان فيهم من خصلات ؟

منهم مَن مات عالْوَطن امْسبل أومَنهم مَن مازال في قـيْد الحياة

يوظف الشاعر الماضي بالفعل كانوا ليسترسل معتزا بعطاءات هؤلاء الأشاوس الذين أعطو المستعمر عبرا كثيرة ودروسا ، دروس التضحية ، والبذل ، وعبر في الشجاعة والبسالة في خضم المعارك ، حيث روعوا قلوب الغاصبين ، واثنوا جبروتهم وحطموا أسطورتهم المزعومة، فأضحت خيالا تهاوى، وذكرى من تاريخ أفلت ، إلى أن يقول بصيغة التأسي والتأسف يا حزني الذي ابتدأه بحرف نداء هو ليس للنداء ، بقدر ماهو استيقاف

للأذهان ، والأنفس للحس والشعور ، وكلمة هي ليست للحزن والأسى على الأبطال بقدر ما فيها من التباكي الذي يتلبسه الفخر والاعتزاز بأعمال هؤلاء الأبطال وبطولاتهم النادرة في ملحمة العزة والشهادة . وهو تأس فيه قراءة أخرى يقولها الشاعر إيحاء ، أن الماضي الثوري البطولي لم يترك أبطالا للحاضر والحضارة ، أوهكذا أراد أن يقول .

ويستطرد متسائلا ماذا ؟ ماذا ؟ ... تساؤل ، بل هو البلاغة التي تتلبس الأساليب لتفرض المعاني فرضا ، وتذعنها حقيقة محسوسة ومعقولة ، فالسؤال هنا والذي قرأناه مكررا لا يراد منه إلا ذكر المناقب والخصال ، وتعدادها ، فهي كثيرة كثيرة ، أظهرت الأبطال ، أبطال الثورة قمما عالية وقيما هادية ، وأسلحة ضاربة ...

منهم مَن مات عالوطن امْسبل أومَنهم من مازال في قيْد الحياة

ويواصل الشاعر حديثه عن هؤلاء الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله ، فكان مصيرهم الموت ، بل الشاهدة كما أراد أن يقول بصيغة امسبل وهي معنى منزاح متداول في المنطقة ، وتعني الفداء أي بيع النفس لله خالقها أو هي في سبيله .

وكثير منهم نعموا بالحرية ، والانتصار ، حينما لم ينعموا بالشهادة ، وتوظيف الطباق في قوله: مات ، الحياة لإيضاح المعنى وتقريبه وهومن ألوان البديع التي جاء ورودها مقتضبا في القصيدة .

اعتزاز الشاعر «بزيز بادر» بأبطال الثورة هو اعتزاز بمآثرها وملاحمها الفذة التي ستبقى سجلا وضاء يتلألأ تاريخا ، أوليست الثورة إلا ثوارا ؟، فلله در الجزائر من هؤلاء الذين رفعوا اسمها عاليا وأصبحت بين العالمين بلد المليون ونصف المليون شهيدا ، أو هكذا نحتسبهم .

هذا هو الذي لمسناه من اندفاعية الشاعر في هذه الأبيات ، أو ما هو من كلامه الشعري الذي أراده كواجب تاريخي وأخلاقي ، مادامت الكلمة الشاعرة تعبير عن نفس ، وكذا عن جيل وأمة ، وهذا هو الذي نعدّه إيمانا بوظيفة الشعر من الشاعر «بزيز بادر» ، لأنه يراه وظيفة إنسانية مؤدّاها الحق والصدق ، ورسالتها الأخلاق الرفيعة وطبيعتها الإبداع المتألم والمتأمّل للمحيط والحياة إذ يقول في قصيدة (وصية شاعر) :

يا شاعر نُوصيك بالــقول اتْأدَب خُوذ المَوْهبة عْلى وجْه الكــمال
لاتَتْــنوفق في اقوالك لا تــكذب قول الحق اللّى انْت عَنُو مُسَال
لا تْأذِ مخلوق بلْــسانك تعْطب أحْسن لفْظك كون صادق في المقال

وهو لا يختلف في نظرته هاته عن كثير من النقاد البارزين ، وفي هذا المنحى يندرج تعريف «هازلت» للشعر إذ يقول : (فليس الشعر فرعا من فروع المعرفة ولكنه المادة التي تكونت منها حياتنا، أما سواه فشيء منسي وخطاب مدفون لأن كل شيء يسمو في الحياة بمقدار ما فيه من الشعر. الخوف شعر، والأمل شعر، والحب شعر والكراهية شعر، والإرادة والحقد وتأنيب الضمير والإعجاب والجلال والرحمة واليأس والجنون كل هذه شعر فالشعر هو أدق أجزائنا الداخلية وهو يوسع ويرقق ويهذب ويسمو بوجودنا)[1]. ويعرف عبد الرحمان شكري الشعر شعرا في مقدمة الجزء الثاني من ديوانه « لآلئ الأفكار»، إذ يقول:

وإنما الشعر مرآة لغانــية هي الحياة فمن ســوء وإحسان
وإنما الشعر تصوير وتذكــرة ومتعة وخيال غير خــوان
وإنما الشعر إحساس بما خفقــت له القلوب كأقدار وحدثــان
من كل معنى يروع الفهم طائلة معنى من الجان في لفظ من الجان

فالشعر إذن حسب هذا التعريف هو أداة جميلة لاستيعاب الحياة بأبعادها المختلفة :

1 ـ يزيد عمار : النقد الأدبي الجزائري ، ص82

البعد الذاتي، والبعد الموضوعي، وهذه الأداة الجميلة التي هي الشعر تتكون حسب هذا التعريف من العناصر التالية: الخيال، والإحساس، والمعنى، واللفظ. وإذا ما تأملنا هذه العناصر فإننا نجد الخيال والإحساس مرتبطين بالجانب الفني ، بما فيه من تصوير ، وقدرة على الإمتاع ، بينما نجد المعنى مرتبطا بالجانب الفكري ، وما يعبر عنه من مواقف في الحياة . ويبقى اللفظ عنصرا مشتركا بين الجانب الفني والفكري على نحو لايمكن فيه الفصل بين ما هو فكري وما هو فني .

ويعرف عباس محمود العقاد الشعر على أنه (حقيقة الحقائق ، ولب اللباب ، والجوهر الصميم من كل ماله ظاهر في متناول الحواس والعقول ، وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها فإن كانت النفس تكذب فيما تحس به أو تداجي بينها وبين ضميرها فالشعر كاذب ، وكل شيء في هذا الوجود كاذب ، والدنيا كلها رياء ، ولا موضع للحقيقة في شيء من الأشياء . قد يخالف

الشعر الحقيقة في صورته . ولكن الحر الأصيل منه لا يتعداها ولا يمكن أن يشذ عنها لأنه لا حقيقة إلا بما ثبت في النفس واحتوته الحواس ، والشعر إذا عبّر عن الوجدان (لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى)[1] .

وهذا التعريف للشعر من العقاد يلتقي مع تعريف عبد الرحمان شكري السابق في اعتبار النفس مصدرا للفن الذي بمقتضاه تتحدد مكانة العمل الإبداعي . والشعر يخالف الحقيقة في صورته لأنه لا يعبر عنها مباشرة ، بل يعتمد على التصوير الفني والتلميح والإيحاء ، وهو مع ذلك لا يبتعد عن حقيقة التجربة الشعورية التي يعيشها ويعمل جهده لإخراجها بكيفية فنية لا يخفى ما فيها من معاناة صادقة . وبعبارة بسيطة ودقيقة قالها العقاد : (الشعر هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق).

فلله در الشعراء الصادقين، حينما كانت عطاء اتهم لخدمة القيم و المبادئ ، لخدمة الإنسانية. كما قال «بزيز بادر»:

ربي وهْبَك خير من شعر مُرتب حافظ عنُو فيه ثروة للأجيال .

ونعود إلى قصيدتنا لنواصل رحلتنا في خباياها و نحن نطل على صرح الحرية الماجد، و نتشمّم ريحها العبقة.

حتى راد اللّه بافعالو يفعل قوة ربي قاهرة كل القُوَات

وكانت مشيئة اللّه وإرادته ، فقُهر العدو . فلفظة قاهرة توحي بالهزيمة النكراء ، والمرد الدنيء للعدو ، والتي يرجعها الشاعر إلى إرادة اللّه ، وهو ما يعكس تصديقا بأن النصر هو من اللّه وحده وهو جزاء الصبر المتلاحم من أبناء هذه الأمة.

هذا النصر الذي كان أمنية أجيال، وأحلام زمن أظلمها ظلم المستعمر ، نصر كان الأمل المفقود والرجاء المصدود ، كان الآهات والأنّات والزفرات ، كان الدموع والدماء والحصارات كان نصرا بعد فقر و ظلم وقهر واستبداد ، .. بعد سجون وعذابات ..... هاهو الأجل ، أجل الانتصار كما يقول الشاعر :

سبحان اللّه كل شيء له أجل نادى صوت الحق بالحرية جات

واقترب ودنا فحان الرحيل ، رحيل المستعمر ، لا ... بل رحيل رواسب هموم وأحزان ، رحيل سحب الظلم التي شدت أنفاس الجزائريين الأحرار ، وحبست آفاقهم ، أحلامهم حريتهم ، حقهم في الحضارة والحياة .

1ـ المرجع السابق ، ص: 82

نادى صوت الحق بالحرية جات وبهذا التشبيه الاستعاري المكني ، والذي شبه الحق وكأنه إنسان لقرينة (الصوت) ، فأضحى الحق صوتا مناديا بالحرية وزهق الباطل أي زهوق (قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) الآية 80 من سورة الإسراء .
والغرض من هذه الصورة هو نقل الحدث إحساسا وشعورا، إجلالا وإعظاما للإنـــجاز الأشم.
راه أدْنى الأجل الراحل يرحـــل خلّ وطن العزْ لـهْل العَــزّات
وانتهت فترة مكتوبة على الشعب ، ومقتضية قدرا من الله أو هكذا أراد أن يقول بقوله: سبحان الله كل شيء له أجل وقوله : راه أدنى الأجل أزمان انقضت وحان الرحيل ، وأضحى الوطن سيدا والكل .
التعبير الديني (راد الله ، قوة ربي ، سبحان الله ، ادنى الأجل) . تعكس الثقافة الاجتماعية والدينية التي تربى عليها الشاعر «بزيز بادر» وهو بذلك عكس محيطه الاجتماعي والفكري على شعره و هو يكسي سمة الصدق في نقل هذا التاريخ الشعري، وأضفى الشاعر نوعا من الإيقاعية الجميلة على المشهد في قوله : بفعالو يفعل ، ادنى الأجل الراحل يرحل ، العز لهل العزات وبتكرار هذه الاشتقاقات المتقاربة أصواتها وتكرار الحروف {اللام والراء} ، ذات الترنيمات الصوتية الخفيفة ساهمت في هذه القطعة الموسيقية الخفيفة والتي تناغمت ومحفل الإنتصار القريب والتي تنقلك إلى الحدث بخطى متسارعة ، إنه فجر الحرية بدت تلوح بشائره ومباهجه للناظرين ، إنها لحظات الشروق بعد ليل دامس ، إنها هي لحظات ترقب لهلال شدّ إليه الناظرين في ليلة مغربه الأولى .....بان الاستقلال .
بان لإستقلال والشعب اتْهول بالفرحة واسْرُور بالاحتفـالات
ابتدأ الشاعر هذا المشهد الجديد بالفعل بان ، وهو الظهور الذي لا لبس فيه ، الظهور المتجانس مع النور، بان القمر ، بانت الشمس .....
وهو تشبيه استقاه الشاعر للتعبير عن الاستقلال ثم يستطرد كلامه والشعب اتهول، اتهول هنا كلمة دارجة :(جا الواد متهول) ، أي بشكل سيل عرمرم ، شديد التدفق وتعني مجازا هنا حالة الفرح العظيم والسرور التي كسيت الشعب ، عبر عنها بإيجاز وإبلاغ .
وبعد هذه الرحلة التاريخية عبر أبيات هذه القصية رحلة استوقفتنا في محطات كثيرة ، ابتدأت بالتاريخ وانتهت بالحدث التاريخ ، عبرها كانت الآم شاعر احتوى آلام أمة فأصبحت الأمة كلها ثورة ، واشتد المخاض فولد النصر و الاستقلال ، وماذا بعد؟ إنه الجهاد الأكبر ، جهاد البناء ، والإعمار ومواكبة النصر للركب الحضاري الذي تخلفت عنه الجزائر سنينا عدادا ، بل قرونا

وابدينا انجاز كذا من معمل وتْكوّن عالمْناصب و آلالات
والثقافة العامة فينـــا تشْمل أولاد الفلاّحين صبْحوا إطارات

فنقل الشاعر بشكل لافت وسريع دون سابق تمهيد أو ذكر لبعض تفاصيل أو حيثيات الاستقلال هو وعي حضاري بقيمة الاستقلال ومستلزماته الطبيعية من وإنجازات حضارية وتكون عالمناصب كما قال الشاعر، ويعني بها تقلد المناصب دراية وعلما وقوله: الثقافة العامة والمراد بها التعليم لأنه أضحى حقا عموميا مجانيا لكل الجزائريين وهو معنى مستقى سياقا من الشطر الثاني من البيت وأصبح الرعاة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، والعمارات أو هكذا أراد أن يقول الشاعر وهنا ينقلنا من حالة البداوة التي كان يعيشها الكثير من الجزائريين إلى الحضارة والرقي وقد استعمل كثيرا من الرموز كدلالة على ذلك (معمل، المناصب ، الآلات ، العمارات) .
وعدّ الشاعر هذا الذي وصلت إليه الجزائر من النعم التي يجب عليها الحمد المشوم بالتوسل

لله بالحفظ والصون ، والشاعر ومن خلال هذه الأبيات يحتفل مع أبناء الأمة بهذا الإنجاز لأشم بعدما حمل الآم الأمة ، وحمل أيضا آمالها لأن الشعر الشعبي الجزائري كان شعرا ملتزما بمطامح الجماهير وآمالها ، فالحديث عن الثورة والوطن هو القطب الذي تدور حوله اغلب النماذج الشعرية ، في مرحلتي الثورة والاستقلال وإن مال الشعراء إلى نوازغهم الذاتية بعد الاستقلال .

والإحساس الحضاري عند شاعرنا بزيز بادر أو الموقف الحضاري فهو رؤية مستقبلية آملة لايشوبها ضباب الحزن والتشاؤم إلا قليلا .

وفي هذا المشهد الأخير ، وبعدما ابتدأ شاعرنا قصيدته بالتذكير والنصح هاهو ينهيها كذلك :

بيّن يا شباب مجهودك وابْـذل واسْمع قول النّظم لْهذا الأبْيـات
اتْحَقّق ماكان فضْكرك يـتأمّـل نعـمة ربـي نحمدوها كِيما جات
حِكاية هذا الوطن بيكم تكْمـل واللّي سلْفو ورثوكـم أمنيـات
ركّـز في رسالتك لا تستعـجل ذا التسرع الْفتوا ليـه النّظـرات
راهم خوَانة أوراكم تتختـل طمّاعين اِيمَزقو في الوَطن أشْتـات
شدْ الماضي وارْبطوا بالمستقبـل والدنيا راه اسْـوايع بالدّرْجات
واعتصم بالله عنُو تـتوكّـل هو قادر يرْفعك لأعلى الدّرْجات
نخْتم قولي بالصّلاة على الرُسـل محـمد علـيه ألف صـلوات

ويعود إلى الشباب يناديهم ، فبعدما كان نداءه الأول للذكرى والتاريخ ، هاهو الثاني للأمر والنصح أمر بالجد والبذل والإعمار ، وتحقيق للأمل المنشود ، وجعله واقعا مسودا فلا تكون النعمة بشكر الجنان ، بل بالفعل العمل ، لأن حماية الوطن كما يقول لا تكتمل إلا بكم أيها الشباب إنها الأمانة الغالية ، أمانة الجهاد والمجاهدين ، فالحفاظ عليها واجب أجيال تتلاحم لتواصل المسيرة .

ركّز في رسالتك لا تستعـجل ذا التسرع اِلْفتوا لِيه النظـرات

وكأني بالشاعر في هذه اللحظة بالذات يشد على يدي، وأنا اخط هذه الكلمات ليستوقفني للتريث وإعمال الفكر ، لأن صلاح الأجيال لا يكون إلا بالصبر والبصيرة ، وما كانت العجلة في شيء إلا أفقدته كثيرا من لوازم النجاح ، فالعلم المعمول بالمنهجية والمنطقية وبعد الدراية ، وسداد الرؤية والهدف ، هوا لذي لمّح إليه ا لشاعر إيحاء بلغته التي درج عليها وان كان فيها كثير من السداد وهي دعوة للعلماء والمفكرين والمصلحين جميعهم ؛ لأن عوامل الإفساد كثيرة ، وكثير هم المفسدون ، وهو إحساس سياسي ينمّ عن ثقافة الشاعر السياسية وفقهه بالواقع العام فإن أردنا النجاح أو أصابنا من بعضنا سوء، فلنتفكّر الماضي الجهادي الذي كان رمز الوحدة والتكامل ، رمز الأخوة والترابط ، لأنه هو الحصن والمانع لنا من مساوئ التشتت والتفرقة شيعا وأحزابا . فحدس الشاعر السياسي هنا لمح لوجود أعداء جدد راهم خوانة أوراكم تتختل

وهو تعبير مجازي جاء بشكل صورة فنية ، عبر عن الدسيسة والخديعة التي تحاك خيوطها بليل لتفرقة الوطن والدين وهو بالفعل ما صدقته مآسات العشرية السوداء .

و يختم قصيدته بالاعتصام ، والتوكل على الله ، لأنه القادر على كل شيء ، فهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء . وختْم القصيدة بعبارات التوسل ، والتوكل ، والدعاء أحيانا ، ينم على البعد الديني للشاعر «بزيز بادر» ، موروث أخلاقي يحافظ عليه أهل المنطقة وبالأخص الشعراء الشعبيون منهم .

و بعد هذه القراءة نستطيع أن نسجل بعض النقاط في ما يتعلق ببعض جوانب التحليل الفني للقصيدة وتستوقفنا هنا الصورة الفنية ، واللغة ، والموسيقى .

الصورة الفنية : الصورة الفنية في شعر «بزيز بادر» ، أو بالأحرى في قصيدته هذه ، ورغم قلتها احتوت على التشبيه والاستعارة ، وكان التشبيه أوفر حظا سواء كان تمثيليا أو غير تمثيلي وهذا ما يتلاءم مع القص والسرد فيمتلئ المشهد الشعري حيوية وحركة وعاطفة ، وتعد ضآلة الصور الفنية والخيال ؛ لعلة الموقف الشعوري ، كون الحدث اتسم بالواقعية والجدية .

اللغة والأسلوب : لغة الشاعر درجة قريبة للفصحى ، اتسمت بجزالتها وايحائيتها ، استعارها الشاعر من لغة الحياة اليومية أعاد تشكيلها فنيا ، وقد وفق في ترتيبها و توظيفها لخدمة البناء الشعري وكذا الموقف الدلالي ، ويبدو أن الشاعر وجد سهولة في بسط المعجم اللغوي المحلي حيث وظف تصريع اللام ، وروي التاء في الأبيات كلها وماله من دلالة إلا اقتدار الشاعر على القاموس اللفظي المحلي ، واختيار بعض الاشتقاقات ، والصيغ ، والأفعال ، والجموع واختيار ما يناسب المعاني لتحري الدقة والتأثير في نفس المتلقي .

أما الأسلوب فتراوح بين الإنشاء والإخبار:

إنشائي : احتوى الاستفهام ، والنداء ، وأفعال الأمر، وكان توظيفهم لأغراض بلاغية .

وخبري : اختاره الشاعر للسرد والقص خدمة للمضمون وكان هو الغالب على النص .

ولمسنا ضجيجا للألفاظ وصخبا عند الحديث عن المشهد الثوري ، واتسمت بالهدوء والخفة في باقي المشاهد.

الموسيقى : التزام الشاعر بتصريع اللام ، وروي التاء على طول القصيدة أعطاها صدى موسيقيا خارجيا مؤثرا استعاض عن الوزن العروضي المعهود في القصائد العمودية الذي لم ينطلي على قرض الشعر الشعبي ، والإكثار من التاء واللام وحتى الراء أعطى إيقاعا خفيفا يستميل إليه المتلقين و كأنه موسيقى تصويرية للمشهد التعبيري .

أما الموسيقى الداخلية فكان حسيسها ناجما عن التغيّر في المواقف ومسايرة الحال ، فإذا ماكان الموقف يتعلق بالثورة والمعارك مثلا فإن الايقاع يستحيل حزينا ، تتحكم فيه العلاقة بين الألفاظ والأصوات كما علقنا على ذلك في تحليلنا .

وأخيرا :

من خلال هذه القراءة المتواضعة لهذه القصيدة الشعبية هو أن الشعر الشعبي :

- كان الواصف والمحلل لمجريات الحياة البيئية و الاجتماعية ، والثورية ، والسياسية .
- تنوع الشعر الشعبي شكلا ، رغم وحدة الموضوع ، تماشيا والبيئات التي وجد فيها .
- التأكيد على أن الشعر الشعبي كان سبيلا إلى الوحدة والتواصل بين أبناء الأمة من خلال شعبيته.
- التأكيد على رمزيته ، ودلالته ، وايحائيته ، لما فيه من القدرة على الوصف ، وانفتاحه على التأويل والمعاني .

فأدرك الشاعر طاقات هذه اللغة ومكوناتها التي أتاحت له استخدامها فنيا في صور عديدة وخاصة في تعبيره عن المعانات ، والثورة ، والحضارة، والمستقبل ، وتمكّنه من الوصول إلى ما يصبوا إليه من وراء الكلمات على الرغم من التغير الواضح في بنية الكلمات ، وعدم خضوعها لضوابط لغوية صرفية و نحوية

والذي ندعو إليه

- لفت الانتباه إلى هذه المادة الأدبية الخام .

- تسليط الضوء على الشعر الشعبي وإسقاط الدراسات الأدبية ، واللغوية الحديثة عليه ؛ لأن الشعر الشعبي هو لسان حال بل ديوان مجتمعات لأزمان طويلة .
- العناية بجمعه وشرحه .
- تشجيع شعراء الشعبي من خلال هذا الاهتمام الأكاديمي . والله من وراء القصد

المصادر والمراجع:

1- أحمد قنشوبة : الشعر الشعبي في منطقة الجلفة ، 1940- 1990 ، دراسة فنية تحليلية لنيل شهادة الماجستير، 1997- 1998 .
2- التلي بن الشيخ : منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1990.
3- مصطفى صادق الرافعي : تاريخ أدب العرب ، ج2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، 1974.
4- ميشال عاصي: الشعر و البيئة في الأندلس، بيروت ، المكتب التجاري ، 1970.
5- عمار يزيد : النقد الأدبي الجزائري , المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1990.